

سيمياء الزمن في (أرض) محمود درويش

د . أم السعد فضيلي

جامعة برج بوعريريج

الملخص :

القراءة السيميائية تركز على علامات الزمن الأكثر ذيوغا، وتستنبط شعريتها وإيحاءاتها، فطفلا (زمن التحدي) عليها، ونبضت علامة (آذار) في قصيدة (الأرض) التي كانت توثيقا لحادثة مقتل خمس فتيات على باب مدرسة ابتدائية اثر غارة صهيونية، تسرق الحياة وتدوس عليها، وقراءة استعمال الزمن عند درويش ليست بالهينة، لأنه لا يعطيه ملمحا واحدا بل ينوع ملاحظه بتنوع علاماته وإشاراته ورموزه ليخرجه في لوحة سردية مشكلة، ممتزجة لم تقدها علامة الفعل وحدها بل احتاجت الى علامات أخرى لصناعة شعريته في توليفة علاماتية ناجحة.

الملخص بالإنجليزية:

Read more time focused on semiotics permeating signs and develop its connotations and its suggestions, kinder (a challenge), and throbbled sign (March) in a poem (Earth) which was documented for the murder of five girls at the door of an elementary school Zionist RAID, steals life and trample on them, read use time when Darwish is not trivial, because it doesn't give him the one feature it diversifies its diversification features signals and codes to get it out in the narrative Panel problem, combined didn't drive already mark but needed more signs for industry poetic in semiotics combination successful.

تمهيد: حمل النص الأدبي أهمية كبرى على مرّ العصور، وتوالت المناهج تصب آلياتها عليه قصد استنطاقه وتحليله، وكان المنهج السيميائي أحد أهم المناهج التي كانت متنفسا للبنىوية المستنطقة للعلامات المشكّلة للنص، وهكذا نالت العلامة حظها الوافر من الممارسات السيميائية حولها، إنها العلامة الحرة المنعقدة من أي قيد في منظور القارئ السيميائي، فيصبح بذلك المنهج السيميائي علما للعلامات وإجراء معرفيا محوره النص بزخمه العلاماتي .

ذلك ما تنبأ به (دوسوسير) في بدايات القرن العشرين، وقال به (تشارلز سوندرز بيرس) الفيلسوف الأمريكي، إذ شكلت دراسات كليهما في هذا المجال اتجاهات متميزة، فحينما يحاول (بيرس) تحديد ماهية العلامة، ودرس مقوماتها مركزا على مجال المعاني لتمثّل في صورها: الأيقونة، والمؤشّر، و الرمز، نجد (دوسوسير) يهتم بوظيفة العلامة - ذات الشقين الدال والمدلول - في عمليات الاتصال، ونقل المعلومات في المجتمع من منطلق لغوي على اعتبار أن النظام اللغوي يعد أرقى الأنظمة الدلالية.

وانطلاقا من كون النص بناء كليا له نظامه الداخلي الخاص الذي يحكمه، ويميزه عن بقية الأنظمة الأخرى، من هذا المجال رأى (غريغاس) أن التحليل السيميائي للنص يتمركز حول مستويين: مستوى البنية السطحية، ومستوى البنية العميقة، فإن كشفت الأولى عن علاماتها أفقيا تفصح الثانية عنها عموديا، مُكسبة بذلك القارئ قدرة التحوار مع العلامات. فكان من الضرورة بمكان أن يكون القارئ السيميائي قارئاً نوعياً متميزاً، يتوفر على قدر ضروري من الاستعداد الجمالي والثقافي حتى يتمكن من الولوج إلى عالم الشعر، وخاصة في عالم كعالم (محمود درويش)، وفي قصيدة كقصيدة (الأرض) - موضوع القراءة - قاصداً في ذلك إلى فك التشفير الذي قام عليه النسج النصي، وأن يكون مؤمناً بإنتاجية، وإبداعية القراءة أثناء التحوار مع العلامات .

ولما كان الزمن أحد أهم الفضاءات البارزة في بناء النص الشعري ، كان من مساعي هذه القراءة أن تفك الشيفرة الزمنية بالنظر إليها في البنية السطحية ثم البنية العميقة للنص ، إذ تتقصى العلامات التي ترسم خريطة الزمن عند درويش من أفعال وأسماء وأدوات زمنية أخرى أهمها علامة (شهر آذار) ، كما تضافرت العلامات صانعة الجو الآداري في أرض درويش في ندائها المستقبلي المتطلع للحياة وفي ارتدادها الورائي في استرجاع الحادثة التاريخية التي استفزت قريحة محمود درويش لتصدر عنه قصيدة وسمها بالأرض ، وقد تنوعت الأزمنة عنده بتنوع العلامات التي تشهر لنا الزمن بشكل مباشر وبسيط حيناً ، وبشكل صعب وممتنع ومستعص أحياناً كثيرة فظهرت علامات الزمن المتحدي ، وعلامات زمن التفاؤل ، وعلامات زمن الثورة ، وعلامات زمن التساؤل والاستنكار والألم ، وعلامات زمن الحزن غير أي أركز على زمن التحدي ، و علامة (شهر آذار) لما لهما من طفو دلالي ، وعمق شعري في القصيدة .

ونحن نتحول بالطريقة التي أتاحتها لنا السيمياء في (أرض) درويش أفصحت لنا العلامات عن تشفير آخر إنه التشفير الإيقاعي ، إذ بتقصي العلامات التي تفرز دلالاتها في إيقاع بين في القصيدة سواء من خلال الأصوات المكوّنة للعلامة . بداية لا بد من الإشارة الى ان الزمن عند درويش يؤدي في دفقة شعورية واحدة ألفت بين الماضي والمستقبل في حاضر حي ، غير أننا بمنظار القراءة الحدائثية نرى في الزمن أزماناً نمتصها من علاماتها ولقراءة قصيدة الأرض في فضائها الزمني قراءة سيميائية تتحول بموجبها الكلمات (أفعالا ، وأسماء ، وأدوات) الى إشارات⁽¹⁾ منعقدة و حرة .

ولما كان البحث من المقومات والأقطاب الأساسية التي يقوم عليها النص الأدبي عامة ، والحدث لا يتحرك ولا ينتشر الا في فلك زمني فإننا نسعى بخطى حثيثة الى تقصي العلامات الزمنية ، ثم تحليل اللوحة الشعرية الزمنية التي تقوم عليها القصيدة ، ذلك من خلال ترقب الأفعال بأنواعها فهي الأكثر لياقة بسيرورة الحدث ، وتعطيه بعده التأويلي والدلالي ، ثم نظرنا لأسماء الزمان وما يعمل عملها ، وما تحمله من دلالات زمنية من خلال البنية السطحية والبنية العميقة التي قال بها غريماس .

. grimas

أ-البنية السطحية:

ونحن نتفاعل مع زمن درويش في قصيدة الأرض ، نجد ان صورة الزمن تبدو في شقين من البنية ، تظهر الأولى على السطح ، ونكتشفها من خلال البنية اللغوية والتركيبية للأفعال ، لأنها أكثر تعبيراً عن الحركية و الحدئية ، وجاءت أكثر جمل القصيدة فعلية ، هذا لا يعني تهميش بعض الأسماء التي وإن كانت أكثر دلالة على الجمود ، فإنها تخبيء في ثوبها دلالات زمنية ، ولأن اللغة ككل بمنظور السيمياء تعتبر نظاماً من العلامات فإننا نستطيع الحديث عن الزمن في البنية السطحية للنص قبل ان نفسر هذه العلامات في بنيتها العميقة حيث نكتشف العلاقات ونفك الشيفرة الزمنية ، وهذه الأخيرة يتحكم فيها القارئ بالدرجة الأولى ، ويصبح الزمن زمن القارئ لا زمن الذات الشاعرة .

فالناظر للوهلة الأولى بنظرة فوقية يرى ان الزمن الطاغي على النص ممثلاً في الفعل المضارع الدال على الحدث في حال وقوعه حاضراً وفي حال استقباله مستقبلاً (الزمن الآتي) ، فكان حضور هذا الزمن مكثفاً يصل تعداده الى 122 فعلاً ، وهو في المقاطع السردية أكثر منه في المقاطع الغنائية² ، وإن كان المقطع الخامس قد نال حظاً وافراً منه وجاء من الفعال المضارعة ما كان خالص الدلالة على الزمن الحاضر او الزمن المستقبل ، ولم يخرج عنها كما جاء منها ما انقلبت دلالاته الى الزمن الماضي لوروده مسبقاً باداة حزم (لم) ، أو بفعل ماض قوي الدلالة على انقضاء الحدث جعل ما بعده من افعال المضارع تدخل في دلالة انتهاء الحدث ، وبلغ عدد هذا النوع من الفعال 16 فعلاً (.....)

ومنه كان من الفعال المضارعة ما حافظ على دلالاته في الحاضر قليل ن ويتمثل في الافعال التالية أمامه رقم المقطع : تفرين (ب) أغني (2) تستفسر (ت) تجيء (ج) تروح (ج) يغني (5) يهدم (6) ، ح)

فهذه العلامات مستقرة الدلالة على الحاضر، ويعج النص بالعلامات الدالة على المستقبل ، إضافة إلى افعال الأمر التي لم تخرج دلالاتها على المستقبل ، وقد بلغ عددها 15 فعلا ، مع فعل الرجاء (أرجوك) الذي نعدده طلبيا يتطلع الى ما يستقبل من الزمن ، أما الزمن الماضي فحضور علاماته كان اقل من المضارع غذ بلغ استعماله خالصا 59 فعلا ، و إضافة الى ما انقلب من المضارع الى الماضي ،يصح تعداده 75 فعلا ، وكان مكثف الحضور في المقاطع (أ ، ث ، 4) والمقطع الأخير (ح، 6).

وبعد رصد استعمالات الزمن في ثوبه التقليدي ، ندرج هذا التفسير لهذا الاستعمال الزمني ، إن درويش يعايش الفترة فهو ابن الأرض المحتلة وابن الانتفاضة الفلسطينية وابن الجرح في أيام نزيهه ،لهذا فهو يكتب بالأمها ، ويرتوي بمرارتها : أنا شاهد المذبحة / وشهيد الخريطة / أنا ولد الكلمات البسيطة.³

لقد شهد الحادثة حادثة سقوط الفتيات اما المدرسة في يوم دموي ، فجادات قريحتهم المكلومة من هول المنظر ، متجهة الى الفعال الحاضرة تطوعها لألم النفس الراهن ، وللمقاطع الحوارية الآنية ، ومتجهة الى الأفعال الماضية المهمة على بينة الحكيم ن فقد ابتداء المقطع الأول بأفعال ماضية متوالية يستلزمها الزمن السردية ن والعرض الحكائي الدرامي الكثر موافقة لمقام الحكيم ، فالزمن الحاضر لديه حي حياة المأساة الجديدة ، حياة اغتصاب الأرض اما عينيه الطفوليتين ، وسقوط الفتيات ضحايا ، وانكسارهن مرايا ، كما فعل في كف قاسم ، فهو يعيش النكسة في حالها ، ويرنو غلى انتهائها والتغلب على المتسببين فيها ، لم تحك له ، إنما هو من يحكيها في حلتها الشعرية الدرامية ن ثم ومن عمق الحاضر المأساوي ، تدعو الذات الشاعرة الزمن المستقبلي ، وتتشبث فيه فجاء النص يعج بالأفعال الومضية المستقبلية المتحدية التي تسمح للشاعر ان يستشرف الخلاص في لغة مجلجلة متطلعة .

وقبل ان ننهي الحديث عن الزمن في بنيته السطحية ، لا بد من الاشارة الى وجود إشارات أخرى غير الأفعال وظفها الشاعر توظيفا لا نستطيع ان نقول انه اعتباطي ن لكنه متغلغل في جمل فعلية كثيرة وهذه الاشارات لا نتوهم دائما انها ادوات (زمنية) توحى بأزمان حقيقية ، لكنها مع هذا تخدم الأزمنة التي نتوصل اليها من شرح اللوحة الزمنية في البنية العميقة لها ، فمنها المشتقات ومنها المصادر ،ونستطيع القول ان هذه الاشارات تدخل في مدار الزمن ، لأنها إشارات ساجدة محملة بحدث في زمان غير مقيّد ، ونأخذ بها لأنها تدل على الحدث والتجدد ، كالفعل وتتميز بهذا عن المشتقات الأخرى التي تدل أكثر على الثبوت وتبعد عن الفعل وتقترب من الاسماء في جمودها .

ب- البنية العميقة:

كانت هذه النظرة الى العلامات الزمنية ، من خلال البناء ، والتركيب الخارجي للغة "درويش" ، في قصيدته ، وبعض الاتجاهات الزمنية للأفعال ، وبعض المشتقات والمصادر غير اننا وبمنظرة سيميائية نحرر هذه الازمنة من قيودها التقليدية ونطلب دلالاتها الجديدة ، ونأول ما وراءها من تفاسير وأبعاد فيتسع مجال القراءة ويتعد مجال ظننا بالعلامة الزمنية الى ابعاد الحدود ، وبهذا نلاحظ أن جداولنا لرصد الأفعال ستتغير .

اكتنرت قصيدة درويش بالأفعال المضارعة بإيحاءاتها المستقبلية غير ان هذه الأفعال هي الأخرى مكنزة بالدلالات فهي دائما أكثر دلالة على الاستمرار و التواصل الذي يرنو اليه الشاعر ، ونظرتنا إليها في السياق داخل شبكة العلاقات تتجلى لنا دلالات أخرى .

ونعرف ايضا ونحن نغوص في هذه البنية ما يتنازع في النص ويعتوره من أزمنة تنحرف -إن صح القول- عن التقليدية البسيطة الى أزمان أدبية -وهو ما نشرئب اليه وما نستهدفه (أي بيان شعرية النص من خلال زمنه) - فهي أزمان غير عادية تجعلنا نتعامل معها تعاملًا خاصًا ، ونتبع تصاعداً أحاسيس الشاعر ، وهو يستعمل الزمن ونفسر سلوكيات الشخصية الشعرية من خلال علاماتها ن وذلك بعد فك الشيفرات الزمنية فكا سيميائيا ، ويصبح للماضي وجوده الخاص وللمستقبل مجاله الخاص ، وللحاضر الآني وجوده الخاص أيضا .

وفي هذه البنية تطالعنا علامات اخرى تحمل الدلالة الزمنية متمثلة في الألوان أو الاشكال المرتبطة بزمن ما ، وكذا التحديات الوقتية المتعامل بها والاسماء الجامدة

فضلا عن الاشارة السابحة التي سبقت الاشارة اليها في البنية السطحية ، كل هذه العلامات شحنت بدلالات زمنية ، ونحن لا نكتشف هذه الدلالات الا وسط بنائها اللغوي وسياقها⁴ وعلاقتها في السياق وتكييف الشاعر لها فتتوزع الازمنة في القصيدة على هذا النحو مرتكزين على الافعال بالدرجة الاولى ثم المشتقات والمصادر ثم التعرّيج على العلامات الزمنية الاخرى غير الافعال والمشتقات وهي اسماء الزمان الموظفة .

1- الزمن المتحدي :

تضح القصيدة الأرض بزمن التحدي ان لم نقل كلها تحدي وتصدي للآخر (الغزاة) ، وتم تأكيدنا على هذه العلامات الزمنية لأنها تحمل في اصواتها دلالات التحدي من جهة ، وتتجه بنا نحو الزمن الآتي الاستشرافي والتطلعي من جهة اخرى ، ولان العلامات الاخرى تلتحم في احيين كثيرة في ايجاءاتها مع دلالات التفاؤل او الثورة.

اما عن العلامات الزمنية التي انفتحت دلالاتها على ما تحملها كلمة (تحدي) من معاني المواجهة والتصدي للآخر ، فهي تصطبغ كلية بهذه الدلالة ونحس بنداء المستقبل والطموح ، اذ تنطق العلامات بدلالات لا تخرج في لهجتها عن التحدي واشهار الرغبة في الخلاص من الظلم بمواجهته ، وهذه العلامات هي درجات في دلالتها تلك (حسب مجيئها في البنية التركيبية).

وتتلور دلالة التحدي غالبا في الافعال المضارعة والطلبية لأنها في الغالب ذات اندفاع امامي ← لا ورائي تراجعى → ، فالمضارع والامر أدل على مستقبلية الحدث والزمن ، لا يقتلان الحدث بل يمدانه عن بعد ويبقى واقفا مستعدا للاندفاع ، هكذا رمى درويش بعلاماته في افق مستقبلي وفي ثقة بمستقبل لا تنقله آلام الحاضر ، ولا أحزان الماضي فجاءت القصيدة في أغلبها صرخة متحدية تتصاعد فيها روح التحدي بتصاعد شعور الشاعر بالأرض والوطن .

وتتبع الدوال في المقاطع ، نجد في المقطع (أ) مدى تكثف النبرة المتحدية والمقاومة فهو يترك السرد الاخباري الذي كان قد ابتدأه لينتقل بنا فجأة الى صرخة متحدية : سنطردهم من غناء الزهور وحبل الغسيل / سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل / سنطردهم من هواء الجليل.⁵

ففعل الطرد لا يصدر الا من رافض تجاه من حل مكانه وانتهك راحته وطمأنينته مفسدا لهدوئه واستقلاله وسعادته والضمير (هم) يعود هنا على من حمل هذه الصفات ، وغزا ارض درويش ، وانا الزهور ، وحبل الغسيل ، وحجارة الطريق ، وهواء الجليل ، كلها تفسر الحياة اليومية المطمئنة في مسيرتها الطبيعية واستمراريتها بحدوء ن وتعكير الإسرائيليين لهذا الصفو في ارض درويش يستدعي كل شحنت التحدي والمواجهة ، وجاءت السين السابقة للفعل أكثر مدلولية على حركة الاستقبال والآتي القريب ، فالطرد سيكون قريبا ، وما ضاعف دلالة التحدي في هذا الفعل هو تكراره بتتابع مما شكل اصرارا على الفعل.

ثم يتلطف جو التحدي قليلا وتلفه نبرة حزينة غير انه لا يفقد كثافته في المقطع (1) مع فعل أو علامة (أسمي) : أسمي التراب امتدادا لروحي / أسمي يدي رصيف الجروح / أسمي الحصى أجنحة / أسمي العصفير لوزاوتين / اسمي ضلوعي شجر⁶ .

فلم تبق التسميات السابقة على حالها لدى الشاعر ، لهذا حور كل التسميات لتتوافق ولهجته المتحدية ، وليقع العالم برسائله المقاومة التي يحملها ويطلقها تسميات جديدة لعناصر الطبيعة وجاء فعل (أسمي) ممتزج الدلالة مع الحاضر وعلى المستقبل ، فالقضية تمتد عنده منذ بداية الاستعمار ويلبسها لباسا ويندمج معها بكيانه فيسمي يديه رصيفا لجروحه ، والحصى في حركة الاجنحة وهي تتطاير ...

ومن هذا المقطع يطالعنا صوت التحدي كامنا في علامة (امتداد) فذا المصدر و ان كان يختزن الحدث اختزاناً فإننا نراه أدل علامة على المستقبل فالامتداد لا يكون الا الى الأمام ← وارتباط (التراب ، الأرض) بروح الشاعر ، وامتداده بامتدادها يدل على سعة التحدي التي تملكها الذات الشاعرة وتعكسها في اشاراتها اللغوية .

ثم يفاجئنا بعد هذا التلطيف النوعي تركيز آخر في لهجة جديدة واندفاع آخر لدفقة التحدي بتغيير لعلامة (أسمي) المكررة الى ثلاثة أفعال متوالية في حركة سريعة :

وأستل من تينة الصدر غصنا /واقذفه كالحجر /وانسف دبابة الفائقين⁷

نلاحظ ان هذه الأفعال الثلاثة (أستل ، أقذف ، أنسف) متتابعة الدلالة ويفضي الواحد منها الى الآخر وتجعلنا نتدرج معها من الاسفل الى الاعلى في دلالاتها على التحدي .

فنالاحظ حركة الاستلال (بخفة وبسرعة) في فعل (استل) كمن يستل سيفه من غمده بسرعة الغضب ان يكون الاشهار في وجه العدو هنا مجسدا في علامة (اقذف) ، وهو لا يقل سرعة واتجاها الى الامام عن الفعل الذي سبقه كما أن حركة القذف لا تكون الا في وجه مرفوض ومنبوذ ن وهنا تتحول ضلوع الشاعر الى حجارة قاسية يستلها ويرشق بها عدوه في تحدي واستمرارية (ولو بأضعف الايمان) وتتصاعد الشحنة وتشتد لتبلغ الذروة مع فعل (أنسف) ليرى الشاعر نفسه اخيرا ناسفا لدبابه الاعداء والنسف لا يكون الا من قوي ، وقوة الشاعر تكمن في تحديه و اذا كان الامتداد في المقطع الاول جاء مصدرا ولم يخل من دلالة زمنية فيها تحدي فإننا نجد يتجسد في فعل (تمتد) و(نتشر) ليعطينا دلالة اخرى خالصة عن الحدي : وفي شهر آذار تمتد في الأرض / في شهر آذار تنتشر الأرض فينا⁸

هذا الامتداد وهذا الانتشار المتبادل بين الأرض كقضية والذات الشاعرة يفضي بنا الى ما تحمله دلالة الانتشار والاتساع والامتداد من تحدي لمن يحاول فصل طرف عن الآخر (الشاعر عن الأرض ، و الأرض عن الشاعر) .

ونجد في نهاية المقطع (3) دلالة التحدي تتجسد في اسم الفاعل (القابضون) و(المستحيل) كمشتق :

فيا ايها القابضون على طرف المستحيل /من البدء حتى الجليل⁹

فهذه العلامة تدل على الحاضر وطريقة القبض اشد دلالة من لو انه وظف علامة المسك ، فالقبض فيه دلالة على القسوة والقوة والتشبث بالضغط غير ان الشاعر يكشف لنا عن دلالة التحدي في موضعين أولهما أنه بدا السطر بنداء للقابضين ثانيهما هو انه اتماه ببيان ما يقبض عليه هؤلاء (طرف المستحيل) فهو يرى ان هذا الغزو مستحيل سينزل يوما وهي نبرة (ندائية) لا تخل من تحدي.

وتبدو شعلة التحدي هذه المرة في كل ما تراه الذات الشاعرة ، فمن فعل رأيت تبرز دلالة التحدي ، وإن كانت وجهته الزمنية ماضوية ، فهي رؤية عينية لا تنفك تصبح رؤية تحدي: رأيت الحصى أجنحة /رأيت الندى أسلحة¹⁰

فهو رأى لكن رؤيته لم تكن رؤية عادية بسيطة ، بل تنطلق من الماضي ممتدة الى المستقبل شاهرة دلالاتها الغاضبة المتحدية "والشاعر كالعراق قد يتشابه عليه الامر لكنه لا يخطئ التقدير"¹¹ ، ويبدو البعد المتحدي فيما يراه الشاعر من ان الحصى أجنحة تهاجم العدو والندى اسلحة تشهر ضده.

ثم ينحرف بالدلالة الزمنية من الماضي الى المستقبل (من الاسفل الى الاعلى) ↕↑ ، فيستعمل علامة (صار): صار قلبي حارة / وضلوعي حجارة¹²

و(صار) لا تحمل دلالة التحول الى ما لم يكن وانما تعني تطور ما هو كائن الى أكثر مما هو عليه في حركة تضخمية لقلب الشاعر ، فتحدي الشاعر لم يتوقف عند كل ما يراه في وجوده (امامه) إنما تحول الى قلبه ليصبح حارة فلسطينية تحتوي كل الفلسطينيين ، وضلوعه إلى حجارة فلسطينية ايضا يدافع بها الشعب عن نفسه في صمود .

وتأتي لفظة التحدي صريحة في المقطع (ث) في علامة (تحيا) : تحيا بلادي / من الصفر حتى الجليل¹³
فالنداء بالحياة هو رفض وتحدي لمن يقول يموت ارض درويش وفناء بلاده لهذا جاءت (تحيا) تدل على زمن الحاضر المستمر في المستقبل.

ويظل زمن التحدي في شهر آذار من جديد في علامات هذه المرة خرجت عن افعال الماضي والمضارع الى أفعال الامر : فاشتبكي يا نباتات واشتركي في انتفاضة جسمي وعودة / حلمي الى جسدي¹⁴

فعلامتي (اشتبكي ، اشتركي) تحملان دعوة الى الاتحاد لصنع التحدي والنجاح فيه ، فهو يدعو نباتات الربيع في صيغة امر لتشتبك وتشارك بقوة لا يشيها فتور في انتفاضته ورفضه العارم وتحديه الصاحب لأجل حلم مستقبلي ينشده ويحضر في المقطع نفسه صوت آخر أكثر دلالة على الوقوف للمواجهة ويتجاوز أي هدوء الى الصراخ عاليا بهذا الوطن ليكامل ، ويتصدى الغزاة :

فيا وطن الانبياء... تكامل / ويا وطن الزراعيين... تكامل / ويا وطن الضائعين... تكامل¹⁵
فعلامتي (تكامل) مشتعلة بمد انفعالي صاحب ، وتكررها في نفس واحد يعطيها دلالتها المرجوة (التحدي ، المواجهة) والتي لا تكون الا بالاتحاد والالتزام والتجمع ، وننتقل الى المقطع (5) لنلاحظ دلالة التحدي في فعل يرد : يرد عليهم¹⁶ .

فعلامتي (يُرد) التي تدل على ارجاع الشيء في عنف ، جاءت هنا في صيغة المضارع لتدل على المستقبل والحاضر معا فالغني يرد عليهم في زمنه الآتي ويرد عليهم مستقبلا ، والرد عليهم فيه نوع من التحدي ، والملاحظة نفسها نسبها على فعلي (يريد ، يهدم) في المقطع المزوج الأخير (ح ، 6) : يريد الغزال الجليلي أن يهدم اليوم سحني¹⁷

ففعل (يريد) يحمل كل دلالات الارادة والتطلع وفعل الهدم هو ما تسقط عليه هذه الارادة بهذا نجد أن الفعلين (يريد / أن يهدم) مشحونان بدلالة التحدي .

وتتجسد دلالة التحدي في علامتي (سيعبر / ولا يتكسر) في المقطع (ج) فالذات الشاعرة تتحدى سيوف العالم ، وتواجهها بالشهيق والزفير :

أي سيف سيعبر بين شهيقى وبين زفيرى ولا يتكسر¹⁸

فالعبور في قوة بين شهيق الشاعر و زفيره سيصد بقوة أكثر منها ، قوة تكسر السيف في صلابته ، وهي دلالة أغنت عنصر التحدي ، فصرخته عالية وثورته متأججة وتنفسه في احتراق يتحدى سيوف الطغيان فيذبيها .

ثم نجد الدلالة نفسها تنبع من الفعل المجزوم (لم يزرعوني ، ولم يعرفوني) اللذين اقترنت دلالتهم مع فعلي (يحصدوني ، يقتلونني) : لم يزرعوني / لكي يحصدوني / لم يعرفوني لكي يقتلونني¹⁹ .

ففي هذه الصيغة تقف أداة الجزم في الفعلين (لم يزرعوني ، لم يعرفوني) حائلا "دون أن يحصد الآخر ثماره ، والآخر هنا في صيغة الغائب الجمع ، يصبح عاجزا عن الفعل وفاقد لمبررات ذلك الفعل نفسه ، فهو لم يزرع لكي يحصد وإنما هو ذلك الدخيل الغازي"²⁰

وانتفاء فعل الزرع أدى الى انتفاء فعل الحصاد ن كما أدى انتفاء فعل المعرفة الى انتفاء فعل القتل ، وفي هذا النفي تكمن دلالة التحدي .

وتتركز دلالات الفعل الزمنية ، وتتكثف في تزايد وتضاعف مكونة تيارا عارما يجرف اي منازع في المقطع (ح ، 6) في فعل (لن تمروا) : ايها العابرون على جسدي / لن تمروا / أنا الأرض في جسد / لن تمروا / أنا الأرض في صحوها / لن تمروا / أنا الأرض يا أيها العابرون على الأرض في صحوها / لن تمروا / لن تمروا / لن تمروا .²¹

فاذا نظرنا الى العلامة من حيث دلالتها المباشرة فالمرور يعني في عرفنا التسهيل والقبول والجواز ن لكن مجيء (لن) النافية قبل الفعل (تمروا) حولها الى الدلالة على الامتناع ، ولن لوحدها في هذه الصيغة تحمل تحديا كبيرا لأنها تعني الرفض القطعي والنفي المطلق في الزمن المستقبل جعلته يمنع المرور ن ويقيم الحواجز امام هذا المرور لأنه سيكون على جسده المتحدي ، وفي صحوه (الأرض) ، ويفصح التحدي عن نفسه أكثر ويتضاعف كلما كرر الشاعر هذا النفي .

وبوصولنا الى بؤرة التحدي وذروته التي رسمتها العلامات الزمنية في دلالاتها نلاحظ ان هذه الدلالة الزمنية (التحدي) هيمنت على مجمل القصيدة وأغلب العلامات فيها قوة وجلجلة ، لكن هذا لا يؤدي بنا الى القول بانتفاء الدلالات الأخرى عن هذه العلامات ، فدلالة (التفاؤل) لا تقل شأنًا بمكان من دلالة (التحدي)، وكان حضورها وافرا في القصيدة .

2- زمن شهر آذار:

أولى العلامات التي نضطدم بها في هذا البناء الشعري هي علامة (شهر آذار) ، التحديد الذي جعله الشاعر إطارا للوحته الزمنية ككل ، فكل الأفعال التي اشرنا اليها انما يتم حدوثها في هذا الفلك الزمني الذي عملت الذات الشاعرة على تكثيف حضوره بدلالاته وإيجاءاته ، وكأنه محور الزمن الذي تتحرك القصيدة كلها حوله ، حتى وصل حضور صوته الى حدود 25 مرة في القصيدة .

فالشاعر لا يكاد يتغيب عنا كثيرا حتى يعود ليدخلنا من جديد في (شهر آذار) على مدار القصيدة ، لتأتي أغلب علامات النص خادمة مطيعة لهذا الزمن ن وهذا التكرار المكثف ، لهذه العلامة في القصيدة يجعلنا نكاد نضعه "عنوانا" لها ، لذا تشكل علامة (شهر آذار) جذرا عميقا يتغلغل في مقاطع النص .

وجاءت علامة شهر آذار محدد أكثر من (23) مرة عندما سبقت بحرف الجر (في) الذي قيدها واعطاها خصوصية التحديد وتمركز الحدث ، وسبقت مرة واحدة بحرف الجر (من) ، كما انما لم ترد الا مرتين كإشارة حرة في صيغة نكرة ، (المقطع أ ، المقطع ج) ، ومجيئه كان اثر تكليفا في المقاطع ذات الحروف أي السردية .

(آذار) إنه ذلك البعد الزمني الذي ترغبه الذات الشاعرة وتتوق اليه ، إنه مفتاح البداية للنص و العلامة الخضراء لابتداء القصيدة ، غنه الحامل لدلالة الزمن الذي يرتبط بالخصوبة والتجدد والاثثار ، ويعادل الحياة بنضارتها وتجدها ، "فظهور الحياة على هذه الأرض يتم في زمان محدد هو شهر آذار ، الشهر الذي تبدأ معه دورة الخصب ، وانبعاث الحياة" ²² .

لهذا فقد عجز النص بالعلامات التي تعبر عن الخصب والنماء (ينظر عنصر ج) ، ولهذا راينا أن نعطي هذا الزمن (المكثف) حقه دون العلامات الزمنية الأخرى التي سبق الإشارة إليها في الجدول (أ 1)

غير اننا ونحن نتنفس هواء آذار مع الشاعر نجده صافيا منعشا حيناً ، ومعكراً مكفهرأ أحياناً أخرى ، وبهذا نرى في هذه العلامة (شهر آذار) رؤيتين : رؤية واقعية تجسدية تؤديها العلامة أداء فورياً ، فتصبح محطة تاريخية ذات بعد تاريخي واقعي ، ورؤية حاملة تطلعية ذات بعد حلمي مستقبلي يطلب الحياة ويرنو إليها .

من المقطع الثاني إذ أن جو (آذار) هنا يلفه سواد وقتامة ، وحزن وتراجيديا ، فهو ههنا لا يتعد عن واقعه المر ، وواقع الحائثة الدموية ، إذ تتقلص دلالاته الزمنية (شهر) ليصبح يدل على يوم واحد من هذا الشهر ، إنه يوم الحادثة التي يرويها درويش في هذه المقاطع (أ ، ب ، ث) ، في استرسال سردي مشوب بالأحزان .

ففي شهر آذار اغتيلت البراءة والطفولة الفلسطينية على أرض واقع أكثر جهامة ودموية ، فاعتمد الشاعر هنا على نمو الحدث المروي ، وتطوره كيفياً في المدى الزمني ووصوله الى نقطة اللاحث (العناق النهائي) .

وبهذا جاء (شهر آذار) زمناً فلسطينياً محددًا أكثر في هذه المقاطع (أ ، ب ، ث) ، لأنه يردف بعلامة زمنية أخرى في (سنة الانتفاضة) ، وهو زمن "ما يزال الفلسطينيون يقيمون له عيداً يسمى عيد الأرض"²³

ولارتباط زمن (شهر آذار) بزمن (سنة الانتفاضة) ، وبزمن الحادثة الأليمة أحرقت الأرض أزهارها ، وبهذا فعلا بعلامة (شهر آذار) لم تعط دلالاتها المعهودة (الخصب ، والنماء والأزهار والحياة ...) ، وذلك لأن واقع الذات الشاعرة هنا مسكون برائحة الموت في المقطعين (أ ، ب ، ث) ، فكانت الاسرار دموية في هذا الزمن وارتبطت علامة (البنفسج) بعلامة (البندقية) لأنها تفتح على دلالة ثورية عنيفة ، والعصافير وهي علامة على الصبا والوداعة والبراءة ورمز على الربيع ، تمد مناقيرها ميمة وهي غامضة مبهمة ، والقطف لا يكون للزهور وانما يكون للحجارة ، والأزهار لم تكن للجمال لأنها أحرقت .

وبهذا انقلبت دلالة (شهر آذار) الى "الدلالة على الحزن والتمزق والعقم ، حيث تكمن في هذا الشهر ذكرى الاساطير المرتبطة بتخصيب الأرض بدماء الالهة"²⁴

كما ترتبط في الوقت نفسه بأسرار دماء فلسطينية لبنات خمس ، ولعل هذا ما يفسر انضواء أغلب الافعال الماضية في هذين المقطعين (أ ، ب ، ث) .

ثم يتحول الربيع او آذار عن صورته المادية الواقعية الى ربيع حلمي يرتبط بزمن الشاعر المفقود والمنشود ن حيث تشرع الذات الشاعرة في استجلاب لك المستقبل المضيء هرباً من ماضيها وحاضرها المسكون بالقتامة والجهامة الدموية فيصبح آذار العلامة الزمنية المرتبطة فعلاً بالخصب والانتشاء والبهجة وتجدد الامل ، فتستجيب أرض الشاعر لهذه الدعوة الباعثة للنماء والاثمار ، ويلغى التوظيف التضادي السابق لعناصر الحياة ، فتزوج الأرض اشجارها ن وتكشف الأرض انهارها فهو يطالعنا في المقاطع (ت ، ج ، 5 ، ح ، 6) ، في نبرة تفاؤلية تطلب فيها الذات الشاعرة الحياة والخصب ، إذ تزداد الجرعة الآذارية في دلالاتها الانبعاثية في المقطع (ت) حيث يتصاعد الجو الاحتفائي في هذه العلامة الزمنية ، فشهر آذار في هذا المقطع يؤذن باستيقاظ الخيل ، فتستيقظ الخيل "لتنطلق في عنفوان القوى الطبيعية الأخرى تسهل برغبة شبقية لتخصيب الحياة وبعثها"²⁵ لتبسط القيم اللولبية والحوازر الاستعمارية ويلمع وجه الشاعر ووجه الأرض عرساً ، وفي شهر آذار ينخفض البحر عن الأرض ، وفي شهر آذار ينتفض الجنس في شجر الساحل ، فيصبح زمن (آذار) خالصاً من كل القيود ، ويرجو الشاعر الأرض أن تغمره بالخصب :

أرجوك سيدتي الأرض أن تخصبي عمري²⁶ .

فهذا الاحصاب والبعث هو ربيع الذات الشاعرة الذي تافت اليه في هذا الزمن (آذار):

وهذا ربيعي الطليعي / هذا ربيعي النهائي .²⁷

وفي المقطع الخامس نجد الشاعر يشتم في هذا الزمن (آذار) رائحة النباتات ، والحياة في زواج العناصر الطبيعية ، ويلتحم الشاعر مع هذه الدلالة الآذارية الحلمية في عناق زراعي ويردده بدعوة النباتات لتشاركه في تحقيق هذا الحلم ، إنه الحلم بعودة الأرض يتجسد في شهر (آذار) .

وفي المقطع نفسه تعود علامة (آذار) الى بعدها التذكري ، لكنه ليس بعدا سلبيا حزينا هذه المرة ، إنه بعد انبعاثي لأن النباتات الصاعدة تجعل أفقه واضحا لا غائما ، كما في المقطع (أ ، ث) ، غير أننا لا نخرج من شهر آذار في هذا المقطع دون أن نلاحظ الاستعمال الذي خالف الاستعمالات السابقة لهذه العلامة (شهر آذار)، فيقول : آذار أقسى الشهور وأكثرها شبقا .²⁸

فآذار أقسى الشهور من حيث أنه كان مساحة لوقوع أحداث قاسية على نفس الشاعر الساخط على هذه الأحداث ، وآذار هو أكثر الشهور شبقا ، لأن الشاعر تأخذه رغبة جامحة في الخلاص من هذه القساوة ويطلب الحياة في عالمها المتسع الخارج من القيود ، فيكون انطلاقه الى العمر والحياة ، وعنائه الزراعي في ذروة الحب وتنفجر الأرض حيث يحقق هذا الخروج من القيود بالري ، وهذه علامة على الحياة والنماء ، وتنبثق على الاشرار والنور وتصبح هذه الرغبة ممتدة الى اللانهاية وأكثر انطلاقا في المقطع الاخير : هذا احتمال الذهاب الجديد الى العمر من شهر آذار حتى/ رحيل الهواء من الأرض²⁹

وهكذا تضطرب العلامات الأخرى ملبية نداء هذا الزمن وتخضع لخدمته ومنها الألوان مثل (أخضر، اخضرار) والنباتات : (الورد ، الزعتر ، العشب ، النباتات ، الزهور ، حشيش ، بنفسج ، شجر ، سفرجل ، برتقال...) و (الهواء ، الانهار ، الربيع ...) كلها رسمت دلالات زمن (آذار) رسما موفقا .

خاتمة : تضافرت العلامات صانعة الجو الآذاري في أرض (درويش)، في ندائها المستقبلي المتطلع للحياة، وفي ارتدادها الورائي، في استرجاع الحادثة التاريخية التي استفزت قريحة الشاعر فأرّخها بضوابط زمنية متنوعة ، وتظهر مدى أهمية الزمن في تشكيل الشعر وتأويله عند محمود درويش .

الهوامش:

- 1- يرى عبد الله الغدامي ان الأخذ بمصطلح (إشارة) ليس بديلا لمصطلح (كلمة) ولكنه تحول لها ، والكلمة اللغوية تظل كلمة في كل مجالات استعمالها، ما عدا حال التجربة الجمالية حيث تتحول الى (إشارة) ، وهذا ما يضمن لها حرية الحركة وبمكناها أحداث الأثر الحر وتنويعه مع كل قراءة .
- 2- المقاطع السردية ذات الرتيب بالحروف ، والمقاطع الغنائية ذات الترتيب بالأرقام العربية .
- 3- محمود درويش، ديوان مج أعراس ، ص 625.
- 4- ينظر: جوليا كريستيفا، علم النص تر فريد الزاهي ، دار توبقال ،الدار البيضاء ، المغرب ، ط2 ، 1997.
- 5- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 619.
- 6- محمود درويش، الديوان مج أعراس ، ص 619.
- 7- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 619.
- 8- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 625.
- 9- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 625.
- 10- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ، ص 625.
- 11- عبد الله حمادي ، مساءلات في الفكر والادب ،ديوان المطبوعات ،الجزائر، 1994. ص 231.
- 12- محمود درويش، الديوان مج أعراس،، ص 626.
- 13- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ، ص 624.
- 14- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ، ص 626.
- 15- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ، ص 627.
- 16- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ، ص 628.
- 17- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 629.
- 18- محمود درويش، ديوان مج أعراس ، ص 626.
- 19- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 629.
- 20- عثمان اعتدال، النص نحو قراءة نقدية ابداعية لأرض محمود درويش ، مجلة فصول ، ع 1 ، مج 5 ، 1984. ص 195.
- 21- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 630 ، 631.
- 22- اعتدال عثمان، النص نحو قراءة ابداعية لأرض محمود درويش ، مجلة فصول ، ص 194.
- 23- اعتدال عثمان، النص نحو قراءة ابداعية لأرض محمود درويش، مجلة فصول ، ص 194.
- 24- اعتدال عثمان، النص نحو قراءة ابداعية لأرض محمود درويش ، مجلة فصول ، ص 195.
- 25- اعتدال عثمان، النص نحو قراءة ابداعية لأرض محمود درويش، مجلة فصول، ص 194.
- 26- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 623.
- 27- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 623.
- 28- محمود درويش، الديوان مج أعراس ، ص 626.
- 29- محمود درويش، الديوان مج أعراس، ص 629.